فضيلة التواضع

إن من البديهيات فى بناء الشخصية الإنسانية وصقل جوهرها أن يعرف الإنسان وضعه، وأن يقدر نفسه، وأن يعقلها بحجمها الحقيقى، وأن يتصورها فى نطاقها المناسب، دون تهويل أو تزيد يضفيان عليها هالة ليست لها، أو انتقاصاً وتهويناً يبخسانها امتيازاً فيها. لأن فى التزيد من قيمة النفس والتضخيم من حجمها تهويلا لشأنها قد لاتستحقه وليست هى فى حاجة إليه، وإذا استشرى هذا، وتغلغل فى توجيه الإنسان أدى إلى إصابة النفس بالعجب والاختيال والفخر، ثم بالغرور والغطرسة والكبر.

كما أن فى انتقاص النفس والتهوين من شأنها، تحقيراً لها، واستخفافاً بها، وقد يؤثر هذا فى شخصية الإنسان، فيصيبها بالقلق والاضطراب والتردد ثم بالخوف والانزواء والعزلة.

وكل هذه الصفات التى تصيب النفس وتؤثر فى نموها وعلاقاتها واتجاهاتها، إنما هى ثمار خبيثة، وسلوك معوج. يأتى لما بذر فى النفس من بذور الضعة والهوان أو الكبر والعلو.

وخير ما يقى النفس الإنسانية شر هذه وتلك، هو أن يدرك الإنسان معنى التواضع، ويلتزم بالمنهج الإسلامى الذى جاء به الإسلام الحنيف.

والتواضع فضيلة الفضائل، وأساس مكارم الأخلاق. يقول ابن منظور فى لسان العرب: إن التواضع فى اللغة هو التذلل، وتواضع الرجل ذل، والتواضع لايكون إلاَّ لله سبحانه. وقيل التواضع: الاستسلام للحق وترك الاعتراض على الحكم. وذكر أحد العلماء: أن التواضع قبول الحق ممن كان.. وسئل أحد الصالحين عن التواضع فقال: خفض الجناح للخلق ولين الجانب لهم. وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ما هو؟ فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له ولو

سمعته من صبى قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته. وقال عبد الله الرازى: التواضع ترك التمييز فى الخدمة.. وهذه التعاريف التى جاءت فى التواضع، تدعو فى وضوح إلى تهذيب الطباع النفسية والنزعات الفطرية والعمل على الحد من غلواء النفس حتى لا تطغى بصاحبها فتتردى به فى مهاوى الغرور والهلكة. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾[١]. وروى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: «الكبرياءُ ردائى والعظمة إزارى، فمن نازعنى واحداً منهما قذفته فى النار»[٢] وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر. قال رجل: يارسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً. قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» وبطر الحق أى دفعه، وغمط الناس احتقارهم.

فالإسلام الحنيف جاءَ يدعو الناس إلى التواضع، ويأمر به، ويحض عليه، ويهتف بالمؤمنين أن يأخذوا أنفسهم به ويلتزموه، ويجنحوا له مستمسكين بالحق، مقبلين عليه منقادين له.. ولقد كان رسول الله ﷺ أحرص الناس على التزام التواضع، وكان فى ذلك مضرب الأمثال فى كل أحواله: فى أقواله ونصائحه وتوجيهاته وأساليب تربيته، ثم فى أعماله اليومية، وممارسته العادية، مع أصحابه، وفى بيته، وبين أهله، ومع خدمه، وفى حله، وفى سفره وفى ركوبه وفى مشيه وفى حديثه ومعاملاته وعباداته. وفى كل شأن من شئونه. وفى رياض الصالحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لو دعيت إلى كراع أو ذراع لأجبت، ولو أُهدى إلى ذراع أو كراع لقبلت»[٣]، وعن أبى غالب قال: قلت لأبى أمامه: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: كان حديث رسول الله ﷺ:

---

(١) القصص: ٨٣.

(٢) الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٣ ص ٨١٦ (ط مكتبة الجمهورية بمصر).

(٣) رياض الصالحين ص ٢٧٥.

«القرآن، يكثر الذكر، ويقصر الخطبة، ويطيل الصلاة، ولا يأنف ولايستكبر أن يذهب مع المسكين والضعيف حتى يفرغ من حاجته»[١].

وروى مسلم عن عياض بن حماد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لايفخر أحدٌ على أحد ولا يبغى أحَدٌ على أحد»[٢].

والذى يسبر فضيلة التواضع يدرك أنها خليقة من أنبل الخلائق وأسمى الخلال التى يدعو إليها الإسلام ويرغبنا فيها، ويأمرنا أن نأخذ فى سلوكنا دور الممارسة الفعلية الحانية الأصيلة التى تشيع فى المجتمع كله بحيث يعرف الإنسان نفسه، ويقدر ربه، ويذل لجلاله، ويذعن للحق، ويلين له، ويقبل عليه، ويسلم إليه، وبه وفيه يرفق بالخلق، ويلين لهم، فيخفض جناحه، ويدنو بجانبه، ويطامن من نفسه هاشًا فيهم، وباشًا لهم، ويمنحهم من وده، ويعطيهم من عطفه، ويحيطهم بألفته، ويغمرهم بأُنسه. أجل. يتواضع المرءُ فى ذاته وفى مشيته وحركته وقوله وحديثه ومعاملته خشوعاً وخضوعًا، ووقاراً واتزاناً.

ويتواضع المرءُ مع أهله: أبويه وزوجه وأولاده وقرابته وذوى رحمه. برًّا بشيوخهم، ورفقًا بضعيفهم. وشفقة بصغيرهم وودًا لهم جميعًا وإحساناً بهم وبأبناء المجتمع الإسلامى عامة من طيب عشرة وحسن خليقة ولين عريكة، وكرم معاملة وإغضاء عن الهفوات، وصفحٍ عن الزلات، ومعرفة لأقدار الناس وإنزالهم منازلهم. روى الإمام أحمد والحاكم عن عبادة بن الصامت رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه».

والمؤمن الحق الذى امتلأ قلبه بالإيمان هو الذى يعقل ويدرك أن التكبر لايرفع صغيرا، وأن التواضع لا يخفض كبيراً، وأن خفض الجناح، ولين الجانب، والرفق

(١) مجمع الزوائد جـ ٩ ص ٢٠.
(٢) رياض الصالحين ص ٢٧٣.

والرحمة أُمور ما شاعت فى الأُمة إلاَّ كانت سبيل أُلفتها، وباعث وحدتها. وكم للرسول الأَمين محمد عليه الصلاة والسلام، وكم لأَصحابه رضوان الله عليهم، والتابعين والصالحين، من وقائع فى التواضع غدت آية الآيات، وأَول الشواهد على ما اتسموا به من خلق رضى، وسلوك سوى، وفضائل ذاتية انعكست آثارها على صفحة المجتمع فأَحالته مجتمعاً متوادًّا متحابًّا، على نحو ما وصف القرآن الكريم فى قوله تعالى فى سورة الفتح.

﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا . . .** ﴾[1].

والمتواضعون من المسلمين هم أَهل الحظوة بعبوديتهم لله سبحانه وتعالى، ولقد بلغ من شرف التواضع وعظيم أَثره أَن جعله الله أَول الأَوصاف التى وصف بها عباده فقال تعالى فى سورة الفرقان ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا** ﴾[2]. وفى معنى الآية يقول الشيخ المراغى فى تفسيره: أَى وعباد الله الذين حُقَّ لهم الجزاء والمثوبة هم الذين يمشون فى سكينة ووقار لا يضربون بأَقدامهم كِبرًا ولا يخفقون بنعالهم أَشراً وبطرًا. . روى أَن عمر رضى الله عنه رأَى غلاماً يتبختر فى مشيته فقال: إن البخترة مشية تكره إلاَّ فى سبيل الله. وقد مدح الله أَقواماً فقال: ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا** ﴾ فاقصد فى مشيتك. وقال ابن عباس: هم المؤمنون الذين يمشون علماءَ حلماءَ ذوى وقار وعفة.

والمتواضعون من المؤمنين أَكرمهم الله سبحانه وتعالى برفع الدرجات وأَعلى المقامات والمراتب فى الدنيا والآخرة. . ولا يطيب العيش فى الدنيا، ولا الحياة فى الآخرة، إلَّا لأَهل الخضوع والتواضع، والمنقادين للحق المذعنين له، والصالحين المصلحين الذين لا يريدون علواً فى الأَرض ولافساداً.

---

(١) الفتح: ٢٩.

(٢) الفرقان: ٦٣.

وأثر التواضع فى المجتمع الإسلامى يبدو واضحاً عندما تتكامل المودة بين الناس ويكثر التآلف والتآخى، والتعاطف والتعاون والاحترام الوفاءُ والصدق والإخلاص.

والأُمة الإسلامية فى أشد الحاجة إلى الاتلزام بالمنهج الإسلامى لتأّخذ طريقها فى الحياة بقوة، وتتمكن من مواجهة الأَخطار المحدقة بالمسلمين.

ألا ما أعظم الإسلام وما أجله وهو يدعو المسلمين إلى التواضع كعنصر حيوى وفعال فى تمامل الشخصية واتساق جوانبها، وما يكون لذلك من ثمرات البر والمرحمة واللين والرفق التى تأْخذ سبيلها إلى سلوك الناس وحياتهم وتعاملهم.

* * *